

### مادة : قضايا النص الشعري القديم (محاضرة 4)

### الإستاذة: راضية لرقم

#### المحاضرة الخامسة : التقليد والتجديد في الشعر العباسي

##### تمهيد :

يعد العصر العباسي مرحلة مهمة في تطور الفكر العربي، وخلالها عرف ذروة عطائه في الفلسفة والعلم والأدب، وكان للاختلاف السائد في المجتمع في المواقف السياسية والاجتماعية والتطور الحضاري والفكري دافعا لوجود صراع بين المقلدين والمجددين، وتجلى ذلك في أدب ذلك العصر شكلا ومضمونا.

#### - مظاهر التجديد في الشعر العباسي:

##### أولا - التجديد في مقدمة القصيدة:

أعرض بعض الشعراء العباسيين عن افتتاح قصائدهم بذكر الأطلال لأن معظمهم من المولدين الذين لا تربطهم أية عاطفة بمعالم الحياة العربية الجاهلية، وقد عبّر أبو نواس تعبيرا صادقا عن ذلك الشعور قائلًا:

مَالِي بَدَارٍ خَلْتُ مِنْ أَهْلِهَا شُغْلٌ      وَلَا شَجَنِي لَهَا شَخْصٌ وَلَا طَلُّ

وَلَا رُسُومٌ وَلَا أَبْكِي لِمَنْزِلَةٍ      لِلْأَهْلِ عَنْهَا وَلِلْجِرَانِ مُنْتَقِلُ

وقد استجاب لهذه الدعوة الواقعية كثير من شعراء العصر العباسي، فوجدناهم يستحدثون مقدمات جديدة تلائم طبيعة العصر العباسي من جهة، كما في مقدمات وصف الطبيعة عند أبي تمام والبحتري، والمقدمة التي تتضمن حكمة كما هو بارز عند المتنبّي وأبي تمام وأبي العلاء المعري.

لكن أكبر حركة ثورية في هذا المجال هي تلك الداعية إلى استبدالها بالمقدمة الخمرية، والتي يعد أبو نواس زعيمها، وهي حركة تغلب عليها النزعة الشعبوية الرامية إلى رفض كل مظاهر الحياة العربية، بما في ذلك المعايير الفنية وتقاليد القصيدة العربية، من ذلك قول أبي نواس:

عَاجَ الشَّقِيِّ عَلَى رَسْمٍ يُسَائِلُهُ      وَعُجْتُ أَسْأَلُ عَنْ حَمَارَةِ الْبَلَدِ

يَبْكِي عَلَى طَلَلِ الْمَاضِيَيْنِ مِنْ أَسَدٍ      لَأَ دَرٌّ دَرٌّ قَلَّ لِي مَنْ بَنُو أَسَدٍ

## ثانيا - الأغراض الشعرية القديمة التي طرأ عليها التجديد:

ظل الشعر العباسي محافظا على الأغراض الشعرية القديمة، لكن بسبب التغيير والتطور الذي طرأ في مختلف مجالات الحياة، ولم يكن الشعر بمنأى عن ذلك التغيير، فتطورت أغراض قديمة واستجدت أغراض أخرى.

### أ- المدح:

استمر الشعراء في مدح بني العباس من أجل نيل عطايا الخلفاء السخية، وقد مدح الشعراء أيضا الأبطال وقادة الجيوش الإسلامية الذين خاضوا معارك ضد الأعداء وحققوا النصر، فقد أشادوا بكل معركة خاضوا غمارها، وبذلك لم تعد قصائدهم مدحا فقط، بل صارت تأريخا لأحداث تاريخية وقعت في ذلك العصر، ونختار من بين هذه الأشعار أبياتا من بائية أبي تمام في فتح عمورية، و مطلعها:

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ      فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللُّعْبِ

يقول الشاعر: لقد أرجف المنجمون، وخوفوا من الاتجاه نحو عمورية، وتحدثوا عن أحداث جسام سستمخض عنها الأيام، لكن استمر الزحف يقوده الخليفة، فحقق النصر، وأبطل بسيفه ما ارجفوا به، واثبت السيف انه اصدق من كتبهم، وان حده قد ميز الحق من الباطل المفترى، وتمثل بائية أبي تمام ملحمة بطولية لقائد وهب نفسه فداء لأهداف أمته. ثم ينتقل أبو تمام لمدح عظمة الفتح والفرحة بالنصر؛ إذ يقول:

فَتَحُ الْفَتْوحُ تَعَالَى أَنْ يُحِيطَ بِهِ      نَظْمٌ مِنَ الشُّعْرِ أَوْ نَثْرٌ مِنَ الْخُطْبِ  
فَتَحُّ تَفْتَحُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ لَهُ      وَتَبْرُزُ الْأَرْضُ فِي أَثْوَابِهَا الْقَشْبِ  
يَا يَوْمَ وَقَعَةَ عَمُورِيَةَ انصَرَفَتْ      مِنْكَ الْمُنَى حَفْلًا مَعْسُولَةَ الْحَلْبِ

يعبر الشاعر عن عظمة فتح عمورية ويصفه بفتح الفتوح، ومن عظمة هذا الفتح يعجز الشعر والنثر عن الوفاء بحقه ووصفه .

كما أن أبواب السماء تَفْتَحُ له؛ حيث شبه السماء بصورة " البيت" فحذف المشبه به وذكر شيئا من لوازمه "أبواب" على سبيل الاستعارة المكنية، وَتَبْرُزُ الْأَرْضُ فِي أَثْوَابِهَا الْقَشْبِ: شبه الشاعر الأرض بإنسان يرتدي ثوب جديد، فحذف المشبه به وهو " الإنسان" ، وذكر شيئا من لوازمه على سبيل الاستعارة المكنية، ويريد الشاعر أن يقول أن هذا الفتح العظيم تستبشر به السماء فتتلقاه متفتحة الأبواب، وتبتهج به الأرض. فتبدو في زينتها وجلالها كالإنسان الذي يرتدي أجمل ثيابه . ثم شبه تحقيق الأماني بالنصر على الأعداء بصورة الناقة التي امتلأ ضرعها باللبن فحذف المشبه به "الناقة" وذكر شيئا من لوازمه على سبيل الاستعارة المكنية، و يبرز الشاعر فرحته وإعجابه بفتح عمورية وتحقيق أماني المسلمين فعادوا فرحين منتصرين ، وشبه ذلك بالحليب الممزوج بالعسل في ضرع الناقة وهنا كناية عن حلوة النصر .

ومن مظاهر التجديد في غرض المدح في العصر العباسي أيضا أنه اتجه اتجاهها جديدا؛ حيث مدح الشعراء مدنهم وفضلوها على غيرها، وأحيانا أخرى كانت قصيدة المديح بمثابة رسائل توجيهية للحاكم ليصلح من حال رعيته، وبالمقابل حافظ

### ب- الهجاء:

تطور الهجاء في العصر العباسي ولم يعد الهجاء وسيلة سياسية تقوم على الانتصار لعصية قبلية أو حزب سياسي، أو النيل من الحلف المناهض، ونقد مبادئه ومواقفه، مثل ما كان ظاهرا بين شعراء النقائض، وصار الهجاء وسيلة الشاعر للدفاع عن نفسه وشعره، ورد الأذى، وقد عبر فيه الشعراء عن سخطهم ودمهم من رفض تحقيق مرادهم، ولذلك كان وقع الهجاء على نفوس المهجويين قاسيا، ويتجلى ذلك على سبيل المثال في هجاء حماد عجرد للشاعر بشار بن برد بقوله:

أَعْمَى يُشْبِهُ الْقِرْدَ إِذَا مَا عُمِيَ الْقِرْدُ

دَبِيءٌ لَمْ يَرُحْ يَوْمًا إِلَى مَجْدٍ وَلَمْ يَغْدُ

لقد هجا حماد عجرد الشاعر بشار بن برد في شكله الجسدي؛ فشبهه بالقرد، وأن له منزلة دنيئة وأنه بعيد كل البعد عن تحقيق المجد والمنزلة الرفيعة في مجتمعه.

وقد يهجو الشاعر مساوئ ومعائب المهجو، فيصف خلاله القبح وصفا مضحكا، ويصوره بطريقة ساحرة،

مستخدما العيوب الجسدية، ومثال ذلك قول ابن الرومي في وصف البخيل:

يُقْتَرُّ عَيْسَى عَلَى نَفْسِهِ وَكَيْسَ بَبَاقٍ وَلَا خَالِدٍ

فَلَوْ يَسْتَطِيعُ لِنَقْتِيرِهِ تَنْفَسَ مِنْ مَنخَرٍ وَاحِدٍ

نلاحظ من خلال هجاء الشاعر لصفة البخل تجديدا في هذا الغرض؛ إذ لو اطلعنا على هجاء الشعراء الجاهليين والأمويين لوجدنا أن صفة البخل تناولها معظم الشعراء فقط من الجانب المتعلق بالفعل الناجم عن هذه الصفة من الناحية الخلقية، ولم يتناولها الشعراء من خلال ربطها بالجانب الجسدي كما فعل الشاعر ابن الرومي.

### ب\_ الغزل:

لقد أثر انتشار مجالس اللهو والشراب التي امتلأت بالقيان والمغنيات، مما جعل الشعراء ينظمون شعر الغزل بطرق تتسم بالمجون، كما ظهر التغزل بالغلمان والمذكر، والتي ظهرت من قبل لدى الفرس، ثم عمت في المجتمع العباسي على أيدي الموالي وغيرهم، وكان هذا النوع من الغزل ينتهك قيم المجتمع من الناحية الموضوعية.

### 3- الرثاء:

اتسع نطاق الرثاء في هذا العصر، فعلاوة على رثاء الخلفاء والقادة، ظهر نوع آخر من الرثاء متمثلا في بكاء الأساتذة والعلماء، كما فعل تلميذ الأعمى الشنتمري حيث أعجب به بعد أن وفد إلى المعتمد بن عباد والتقى به وحينما توفي رثاه بحرارة، من ذلك قوله:

اسْمَعِ أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ وَنَاصِرَ الدِّينِ الَّذِي بِنُفُوسِنَا نُفَدِيهِ  
 جُوزِيَتْ خَيْرًا عَنْ رَعِيَّتِكَ لَمْ تَرْضَ فِيهَا غَيْرَ مَا يَرْضِيهِ  
 تَصِلُ الْجِهَادَ إِلَى الْجِهَادِ مُوقَفًا حُكْمَ الْقَضَاءِ بِكُلِّ مَا تَقْتَضِيهِ  
 مُتَوَاضِعًا لِلَّهِ مُظَاهِرَ دِينِهِ فِي كُلِّ مَا تُخْفِيهِ أَوْ تُبْدِيهِ

وقد ظهر نوع آخر من الرثاء لم يكن معروفًا قبل العصر العباسي، والمتمثل في رثاء المدن؛ مثل رثاء ابن الرومي لمدينة البصرة، عندما أغار عليها الزنج فنهبوها وأحرقوها، إذ يقول:

دَادَ عَنْ مُقَلَّتِي لَذِيذِ الْمَنَامِ شُغْلَهَا عَنْهُ بِالدُّمُوعِ السَّجَامِ  
 أَيُّ نَوْمٍ مِنْ بَعْدِ مَا حَلَّ بِالْبَصْرَةِ مِنْ تَلَكُمُ الْهَنَاتِ الْعِظَامِ؟  
 أَيُّ نَوْمٍ مِنْ بَعْدِ مَا انْتَهَكَ الرَّئُوسُ جُجَهَارًا مَحَارِمَ الْإِسْلَامِ؟

4- الزهد:

ظهر في مقابل المجون واللهو نزعة أخرى تجلت في شعر الزهد، والذي يصف حقيقة الدنيا الزائلة وأن الآخرة خير وأبقى، وبرز في هذا النوع من الشعر أبو العتاهية الذي كانت له فلسفته الخاصة في الزهد، إذ يقول في إحدى قصائده:

أَلَا إِنَّمَا كُنَّا بَائِدٌ وَأَيُّ بَنِي آدَمَ خَائِدٌ؟  
 وَيَدُوهُمْ كَانَ مِنْ رَبِّهِمْ وَكُلٌّ إِلَى رَبِّهِ عَائِدٌ  
 فَيَا عَجَبًا كَيْفَ يَعْصِي الْإِلَهَ أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَا حِدٌ

5- الوصف:

عرف غرض الوصف تطورا ملحوظا في العصر العباسي اختلف في بعض خصائصه عما كان سائدا في العصر الجاهلي والأموي، وساهم في ذلك التغييرات التي طرأت على المجتمع العباسي، والتي جعلت الشاعر يعيش في نعيم وبدخ، مما فرض ذلك ظهور موضوعات جديدة تتوافق مع ما تقع عليه العين من مظاهر الطبيعة والتطور الحضاري، ولعل أهم موضوع يتجلى ذلك فيه هو وصف الرياض، والافتتان في تصويرها، وقد اشتهر بذلك البحري، ومثال ذلك وصفه للربيع:

أَتَاكَ الرَّبِيعُ الطَّلُقُ يَخْتَالُ ضَا حِكًا مِنْ الْحُسْنِ حَتَّى كَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ  
 وَقَدْ نَبَّهَ النَّوْرُوزُ فِي غَلَسِ الدُّجَى أَوَائِلَ وَرَدٍ كُنَّ بِالْأَمْسِ نُومًا  
 يُفْتَتِّمُهَا بَرْدُ النَّدَى فَكَأَنَّهُ يَبِثُّ حَدِيثًا كَانَ أَمْسٍ مُكْتَمًا  
 وَمِنْ شَجَرٍ رَدَّ الرَّبِيعُ لِبَاسَهُ عَلَيْهِ كَمَا نَشْرَتْ وَشَيْئًا مُنْمَمًا

أَحْ فَأَبْدَى لِلْعُيُونِ بَشَاشَةً      وَكَانَ قَدَى لِّلْعَيْنِ إِذْ كَانَ مُحْرَمًا

وَرَقَّ نَسِيمُ الرِّيحِ حَتَّى حَسِبْتُهُ      يَجِيءُ بِأَنْفَاسِ الْأَحْبَةِ نَعْمًا

### ثالثا - الأغراض المستحدثة في العصر العباسي:

ظهرت أغراض جديدة في العصر العباسي لم تكن موجودة من قبل من بينها :

أ- **الشعر التعليمي**: وهو فن استحدثه الشعراء العباسيون، وكان ذلك نتيجة تطور الحياة العقلية وكذلك تنوع روافد الثقافة في العصر العباسي، وكان لابد للأديب أن ينهل منها، وكانت الحاجة إلى وسيلة تسهل ذلك، فلجأ الشعراء إلى نظم أشعار في مختلف العلوم مثل: النحو والفقه والمنطق، مما يسهل تداولها وحفظها في الذاكرة.

ب- **الشعر الوطني**: وظهر نتيجة التطور الحضاري الذي بلغه العصر العباسي، فبنيت القصود الفخمة والحدائق، فصار الشاعر العباسي يحن إلى المدن التي نشأ فيها، وله ذكريات فيها.

ج- **شعر السخرية والفكاهة**: ظهر هذا الغرض من الشعر نتيجة موقف الشعراء من الصفات الذميمة التي كثيرا ما وظفوها في غرض الهجاء، فصار الشعراء يسخرون ممن يتصفون بتلك الصفات، وكان الشاعر العباسي أحيانا أخرى يجنح إلى ذلك طلبا للهو والمزاح، فقد ظهر في العصر العباسي ميل عام إلى الفكاهة والنادرة، ومن بين هؤلاء الشعراء: بشار بن برد، ابن الرومي، وأبو نواس.

### رابعا - التطور على مستوى الأوزان الشعرية:

لم تكن الأوزان قيذا يقف أمام الشاعر العباسي المقتدر وصاحب الثقافة اللغوية الواسعة، ولكن تطور الحياة العربية على مر العصور والتطور الحضاري الذي عرفه العصر العباسي واختلاط المجتمع العربي بأجناس مختلفة تبعه بالضرورة هجران كثير من ألفاظ العربية البعيدة عن واقع الحياة لزوال دواعي استعمالها، وعليه فإن هؤلاء الشعراء وجدوا في الأوزان عائقا يقف في طريقهم، ويشكل قيذا ثقيلًا يمنهم من الانطلاق، وقد ظهر ذلك في شعر المتأخرين، كما أن شيوع الغناء في المجتمع كله تحول بالشعر إلى الطابع الشعبي، فانصرف الشعراء عن الأوزان الصعبة والمعقدة، وأقبلوا على الأوزان الخفيفة الملائمة للغناء كالوافر، الخفيف، الرمل، المتقارب، واستعملوا مجزوء الأوزان الطويلة مثل: مجزوء الكامل، مجزوء البسيط، مجزوء الرمل... وذلك كله استجابة لتطور الذوق العام الذي أرفهته الحضارة والمدنية.

يمكن القول ختامًا أن التطور الكبير الذي عرفه العصر العباسي في ميادين مختلفة انعكس على الجانب الفني للشعر، فتطورت الأغراض القديمة، وتم استحداث أغراض أخرى لم تكن موجودة من قبل وغيرها من التغييرات التي طرأت على القصيدة العربية.

## 1- مفهوم الزهد لغة واصطلاحاً:

يعرف الزهد لغة بأنه القلة في الشيء الزهيد، وهو الشيء القليل، وتأتي لفظة زهد بمعنى لم يرغب في أمر معين فزهد فيه، والزاهد في الدنيا التارك لها.

أما اصطلاحاً فالزهد هو حنين الروح إلى مصدرها، لمعرفة الخالق عن طريق الزهد في الدنيا ومتاعها، والانصراف عنها احتقاراً وتصغيراً لشأنها، والرغبة عن نعيمها، وتفضيل نعيم الآخرة عليها.

## 2- نشأة شعر الزهد وخصائصه:

لقد أحدث ظهور الإسلام تغييراً كبيراً في حياة العرب، وجاء بقيم التوحيد والعبادة، ومجاهدة النفس وشهواتها، والإقبال على الفضائل وإخلاص العبادة لله وحده، والإنقياد لأوامره، وتجنب نواهيها، وكان نتيجة ذلك أن سلك الكثير من المسلمين طريق الزهد في الدنيا، ويؤيد ذلك شوقي ضيف؛ إذ يرى أن "المصدر الأساسي لهذا الزهد كان الإسلام نفسه، وما دعا إليه من رفض الدنيا والابتهاال إلى الله وانتظار ما عنده من النعيم الحق. وسرعان ما وجدنا طائفة كبيرة من الوعاظ، تعيش حياتها تعظ الناس وتدعوهم إلى أن يجعلوا العبادة والنسك قرّة عينهم"، غير أن ذلك لا يعني أن المسلم الزاهد في الدنيا ملزم بترك أموره الدنيوية، وعدم إنجاز مسؤولياته؛ بل هو مطالب باختيار الأسباب والوسائل المؤدية إلى بغيته في حدود الشرع، ومطالب بالجد والاجتهاد لصالحه وصالح المجتمع، إلا أن الإسلام يركز تركيزاً شديداً على إعطاء التصور الحقيقي الصحيح لهذه الدنيا الفانية، ويذكر الإنسان بالاستمرار أن مستقره الدائم هو الحياة الآخروية لكي لا يغتر بمفاتن الدنيا وزخارفها، ولكي لا ينسى دوره في هذه الدنيا وواجبه الذي خلقه الله لأجله ألا وهو عبادة الله عز وجل.

كما شهدت الدولة الأموية بعد عهدي: النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين تغييراً في الحياة الإجتماعية؛ بعد الفتوحات الإسلامية؛ حيث أصابوا غنائم كثيرة، فصار المسلمون يعيشون حياة الترف، وأقبلوا على ملذات الحياة واللهو، وما تبع ذلك من انحراف خلقي، وإثر ذلك وجد المسلمون أنفسهم ملزمين بدعوة الناس إلى اتباع طريق الحق والإبتعاد عن الشهوات، والزهد في الدنيا، وبالتالي يكون ظهور حركة الزهد في القرن الأول الهجري نتيجة تلك الظروف السياسية والاجتماعية التي عاشها المسلمون آنذاك.

بالإضافة إلى أن التطور الإجتماعي الذي حدث في القرن الثاني كان له أثرا خطيرا في تيار الزهد وتطوره. فشيوع تيار اللهو والمجون والزندقة و وجود فوارق واضحة بين الطبقات الاجتماعية في ذلك العصر، كان لابد أن يوجد حركة عكسية مضادة تعكف على تقوى الله وتقصر نفسها على العبادة، وتحترق المال وزخرف الدنيا وزينتها.

وبالتالي فقد انتشر شعر الزهد في القرنين الأول والثاني الهجريين، وساهمت في ذلك عوامل سياسية واجتماعية ودينية، أثرت في نفوس الناس، وحركت فيهم الرغبة في الزهد، بالإنصراف عن متاع الدنيا ولذاتها، والسعي للظفر بنعيم الآخرة، وللإسلام أثر كبير في ذلك، باعتباره يحث على الزهد في الدنيا والإنصراف عنها، والرغبة في الآخرة، كما انصرف بعض الشعراء ، وخصوصا في العصر العباسي إلى نظم شعر الزهد، رغبة في الابتعاد عن القضايا السياسية هذا من جهة، كما ظهرت طائفة من الشعراء الذين أزعجهم شيوع اللهو والمجون، ولم يستطيعوا الوقوف في وجه ذلك التيار، فراحوا يعبرون عن استيائهم من ذلك من خلال شعر الزهد.

ويتضمن شعر الزهد الدعوة إلى الموعظة والعبادة والنسك، والحث على الإنصراف عن ملذات الدنيا ومتاعها، وعدم تعلق القلب بها، وعدم الخضوع لها، والتذكير بالآخرة الدار الأبدية، ومن أمثلة تلك الأشعار في الزهد :

يقول أبو نواس:

أَيَا مَنْ لَيْسَ مِنْهُ مُجِيرُ      بَعْفُوكِ مِنْ عَدَابِكَ أَسْتَجِيرُ  
أَنَا الْعَبْدُ الْمُقَرُّ بِكُلِّ ذَنْبٍ      وَأَنْتَ السَّيِّدُ الْمَوْلَى الْعَفْوُ  
فَإِنْ عَدَّبْتَنِي فَبِسُوءِ فِعْلِي      وَإِنْ تَغْفِرْ فَأَنْتَ بِهِ جَدِيرُ  
أَفِرُّ إِلَيْكَ مِنْكَ وَأَيْنَ إِلَّا      إِلَيْكَ يَفِرُّ إِلَيْكَ الْمُسْتَجِيرُ

وخير من يمثل شعر الزهد في العصر العباسي الشاعر أبو العتاهية الذي يقول:

مَا لَنَا لَا نَتَفَكَّرُ      أَيْنَ كِمْرِي أَيْنَ قَيْصَرُ؟  
أَيْنَ مَنْ جَمَعَ الْمَا      لَ مَعَ الْمَالِ فَأَكْثَرُ؟  
أَيْنَ مَنْ كَانَ يُسَامِي      بَعْنَى الدُّنْيَا وَيَفْخَرُ  
لَيْتَ شِعْرِي أَيَّ شَيْءٍ      بَعْدَ شَيْءٍ مِنْهُ أَنْظُرُ  
قَدْ رَأَيْنَا الدَّهْرَ يُفْنِي      مَعْشَرًا مِنْ بَعْدِ مَعْشَرِ  
لَيْسَ يَبْقَى ذُو يَسَارٍ      لَا وَلَا مَنْ كَانَ مُعْسِرِ

يقدم أبو العتاهية النصح والموعظة للبشر، داعيا إلى ترك متاع الحياة؛ فالدنيا ليست دار بقاء أبدي، ويحذر كل من أغرته الدنيا أنها زائلة لا محالة، فيجب على الإنسان الإنصراف عنها والزهد فيها.

## ثانيا - شعر التصوف

### 1- مفهوم التصوف لغة واصطلاحا:

جاء في لسان العرب معنى لفظة تصوف مشتقة من كلمة صوف، ونسب اسم صوفية إلى قبيلة، وترد معان أخرى لمفردة التصوف مثل الدلالة على الصفاء والصفو، وتشير أيضا إلى أهل الصفة الذين كانوا يسكنون صفة المسجد النبوي، ويزهدون في الدنيا.

والتصوف اصطلاحا هو العكوف على العبادة والانقطاع عن العمل والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة وجاه، والصوفي عند أهل التصوف من هو فان بنفسه باقٍ بالله تعالى مستخلص من الطبائع متصل بحقيقة الحقائق، والتصوف مذهب كله جدّ فلا يخلطونه بشيء من الهزل، وهو تضحية بالذائد، ومجاهدة النفس ومغالبة لأهوائها، فالصوفي هو الزاهد في دنياه، والمتعلق قلبه بالله.

### 2- نشأة التصوف وخصائصه:

لقد تطور تيار الزهد الذي ظهر في القرن 2هـ إلى تصوف، غير أن هناك فرقا واضحا بين الزهد والتصوف؛ حيث أن الزهد اتجه سلوكي مضمونه التقشف، والإنقطاع عن الدنيا، والاتجاه إلى الله عن طريق العبادات المعروفة في الدين، فغاية الزاهد إذن تمام العبادات، وكمالها على ما وضعه الشرف، وأما المتصوف، فهو الذي يسلك طريق التجربة الروحية، ويستعمل طرق المجاهدة، والرياضة الروحية لكي يصل إلى مرتبة تتكشف له فيها الحقائق العليا، فيكون قد تخطى عتبة الدين الظاهر؛ وبالتالي فإن مرتبة التصوف أرقى من مرتبة الزهد؛ باعتبار التصوف تجربة روحية تتجاوز ما هو متجلي إلى ما هو روحاني، بينما الزهد يعد سلوكا يوضح انصراف الزاهد عن متاع الدنيا، والتقرب من الله عن طريق العبادات التي يسعى إلى كمالها.

كما أن التصوف « لم يعرف نهائيا بهذا الاسم، وبهذا العلم في القرن الأول؛ بل عرف باسم الزهد، والعبادة في القرن الثاني والثالث الهجري وأخذ حدوده وأبعاده في نهاية القرن الثالث، ومن أعلام التصوف الذين برزوا في القرن الثاني الهجري : سعيد بن المسيب (ت159هـ)، يحيى بن دينار (ت131هـ)، و رابعة العدوية (ت185هـ).



أما في القرنين الثالث والرابع الهجريين، فقد عمل الصوفية على خلق التوفيق بين التصوف وتعاليم الدين الإسلامي، واتخذوا القرآن والسنة ميزانا، وعنوا بوجه خاص بناحية الزهد، والعبادة الأخلاقية في التصوف، ومن أبرز أعلام هذين القرنين، نذكر: ذو النون المصري (ت245هـ)، الحلاج (ت209هـ)، والشبلي (ت334هـ).

وقد تطور التصوف في القرن الخامس، فظهر التصوف الديني الأخلاقي، أو ما يسمى بالتصوف السني، وهو الذي سيطر بوضوح على تصوف ومتصوفة القرن الخامس الهجري، ويعتبر الإمام الغزالي أكبر مدافع في الإسلام عن التصوف السني، وهو التصوف القائم على عقيدة أهل السنة والجماعة، وعلى الزهد والتقشف وتربية النفس، ومن أعلام التصوف في القرن الخامس: أبو القاسم القشيري (ت465هـ)، الإمام الغزالي (ت505هـ)، و عبد القادر الجيلي (ت561هـ)

ونجد التصوف في القرنين السادس والسابع الهجريين صار أقرب ما يكون إلى الفلسفة، فقد توجهت هم أصحابه في تلك الفترة إلى الكلام في حقائق الموجودات العلوية، والسفلية على وجه لا يفهمه من لم يشاركهم في أذواقهم ومواجيدهم «، ومن أعلام التصوف في هذين القرنين نذكر: السهروردي (ت587هـ)، محي الدين بن عربي (ت638هـ)، ابن سبعين الأندلسي (ت669هـ)، وعمر بن الفارض (ت632هـ).

أما في الفترة الممتدة من القرن الثامن الهجري إلى غاية القرن العاشر الهجري فقد كان للتصوف تأثيرا كبيرا على العالم الإسلامي من نواحي عديدة ، ومن أبرز أعلام التصوف في هذه الفترة: تقي الدين السبكي (ت756هـ)، ظهر شمس الدين الحنفي (ت847هـ)، السيوطي (ت911هـ)، الشعراني (ت973هـ).

### 3- خصائص الشعر الصوفي :

يعبر الشاعر الصوفي من خلاله شعره الصوفي عن تجربته الروحية بلغة خاصة تنجح إلى الإيحاء والمجاز والرمز، يصعب على غير الصوفي فهمها، إذ يحمل الشعر الصوفي معنيين؛ أحدهما ظاهر يفهم من لفظه، والآخر خفي لا يتمكن منه إلا من له إطلاع ومعرفة بالمصطلحات الصوفية، غير أن تلك الرموز الصوفية تضيف إلى النصوص الشعرية الصوفية جمالا فنيا يصلنا بعالم الجمال والسمو الروحي، فعلى سبيل المثال نجد الشاعر عمر بن الفارض يتحدث عن النساء وعن الحب الإنساني في شعره الصوفي تماما مثل ما يقوم به الشعراء العذريون، لكن عمر بن الفارض لا يقصد المعاني التي ذهب إليها العذريون، إنما كان يرمز إلى الذات الإلهية ، مثال ذلك قوله:

وَارْحَمْ حَشَى بَلْطَى هَوَاكَ تَسْعَرَا

زِدْنِي بَقْرَطِ الْحُبِّ فِيكَ تَحْيِرَا

فَاسْمَحْ وَلَا تَجْعَلْ جَوَابِي لَنْ تَرَى

وَإِذَا سَأَلْتِكَ أَنْ أَرَاكَ حَقِيقَةً

يا قلب أنت وعدتني في حبهم

صبراً فحاذر أن تضيق وتضجرا

إن الغرام هو الحياة فمت به

صَبّاً فحَقَّكَ أن تَموتَ وتُعذِّرا

شرح الأبيات:

- 1- يوجه الشاعر خطابه إلى الذات الإلهية، وفي ذلك إفصاح بالمحبة المجاوزة لكل حد، ويطلب من الذات الإلهية الرحمة له ولما في بطنه من حشى تسعر وتوقد بسبب محبته للإله.
- 2- في هذا البيت تلميح لقصة موسى عليه السلام حين طلب من ربه رؤيته، والمقصود من الرؤية هنا طلب الرؤية في الآخرة، إذ أن النبي موسى حرم من رؤية الله فكيف بـ عبد بسيط.
- 3- يحذر الشاعر قلبه من أن يضيق ويمل من صبره في محبة الله، لأن الوفاء بالوعد كالقيام بالعهد، فهو يطلب لنفسه الصبر والثبات على طاعة الله.
- 4- إن الموت في سبيل حب الله معذور فيه لأنه سيكون حيا إذا مات فيه؛ لأن الموت في حب الإله هو حياة حقيقية، وهو موت يختاره الإنسان لأن المقصود منه موت رغبات النفس من خلال التفاني في حب الإله.

إن الحديث عن الزهد والتصوف يفترض وجود أحدهما الآخر، باعتبار أن الزهد مهّد لظهور التصوف، فالزهد كان دعوة إلى الإنصراف عن ترف الحياة والإكتفاء بما يضمن للإنسان استمرار الحياة، في حين اتسم التصوف بالإعراض المطلق عن زينة الحياة ورغبات النفس وشهواتها.

بالإضافة إلى أن شعر الزهد والتصوف من فنون الشعر التي ازدهرت في العصر العباسي، وقد نظم العديد من الشعراء العباسيين قصائد تسمو بالنفس وروح الإنسان إلى أعلى المراتب العرفانية.

## المحاضرة السادسة: قصيدة المديح في الشعر العربي القديم

لقد عرف غرض المدح حضورا بارزا في قصائد الشعراء العرب على مدى العصور المختلفة منذ العصر الجاهلي، وشهد تطورا في التعبير عن قيم المجتمع العربي وفضائله المختلفة، مما ساهم في تخليد أصحابها ومآثرهم الاجتماعية، وقيمهم القائمة على مكارم الأخلاق، ويمكن التفصيل في ذلك فيما يأتي.

### 1 - مفهوم المدح لغة واصطلاحا :

يرد في لسان العرب لابن منظور أن مفهوم المدح هو حُسن الثناء، ونقيض الهجاء، والمدائح جمع مفردة المدحة والأمدوحة وهو الشعر الذي مُدح به.

أما اصطلاحا فالمدح هو ثناء الشاعر على شخص ما، و وصفه بمكارم الأخلاق والفضائل الحميدة، ويعد شعر المدح وسيلة الشاعر للثناء على سادة قبيلته وفرسانها، ويعد من أهم أغراض الشعر العربي القديم؛ إذ يقول ابن رشيق القيرواني في كتابه العمدة في محاسن الشعر وآدابه أن أصناف الشعر أربعة وهي: المديح والهجاء والحكمة واللغو، ثم يتفرغ من كل صنف من ذلك فنون؛ فيكون من المديح المراثي والافتخار والشكر، ويكون من الهجاء الذم والعتاب والاستبطاء، ويكون من الحكمة الأمثال والترهيد والمواعظ، ويكون من اللغو الغزل والطرد وصفة الخمر والمخمور.

### 2- خصائص قصيدة المدح :

يذكر ابن قتيبة في كتابه "الشعر والشعراء" خصائص قصيدة المدح فيقول: "سمعت بعض أهل الأدب يذكر: أن مَقْصِدَ القصيدة إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار، فبكى وشكا وخاطب الربيع واستوقف الرفيق، ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الطاعنين عنها... ثم وصل ذلك بالنسيب، فشكا شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصبابة، ليميل نحوه القلوب ويصرف إليه الوجوه،، وليستدعي به إصغاء الأسماع إليه؛ لأن التشبيب قريب من النفوس، لا تُط بالقلوب لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النساء... فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له، عقبَ بإيجاب الحقوق فرحل في شعره وشكا النَّصب والسهر وسُرَى الليل، وحرَّ الهجير وإنضاء الراحلة والبعير؛ فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء... بدأ في المديح فبعثه على المكافأة وهزّه على السماح وفضّله على الأشباه"

يتضح من خلال قول ابن قتيبة أن شعراء العصر الجاهلي كانوا يستهلون قصائد المدح بذكر الأطلال والبكاء على رحيل أهلها الطاعنين، تعبيرا عن شوقهم للأحبة، وقد لاحت من بعيد ذكرى رحيلهم وفراقهم، ثم ينتقلون إلى وصف رحلتهم وراحلتهم السريعة والنشيطة، معبرين عن معاناتهم من مشقة السفر، ثم ينتقلون إلى غرض المدح، وقد اتبع الكثير من الشعراء هذا النمط من قصيدة المدح في العصور الموالية للعصر الجاهلي، غير أن شعراء العصر العباسي رفضوا افتتاح قصائد المدح

بالبكاء على الديار المقفرة، لعدم وجود عواطف تربطهم بالطلل، وهذا أمر طبيعي؛ فقد ساد التطور الحضاري والاجتماعي في العصر العباسي مما يتنافر مع حياة البداوة.

وكان الشاعر الجاهلي يمدح ممدوحه بفضائل حميدة وبمكارم الأخلاق؛ مثل: الكرم، الشجاعة، المروءة، العدل، إغاثة المستغيث... وغيرها، ولعل أسمى معاني المديح التي تجلت في قصائد شعراء الجاهلية تلك الأبيات التي مدح الشاعر زهير بن أبي سلمى رجلان هما: "هرم بن سنان" و"حارث بن عوف"، ومدح صنيعهما حين دفعا ديات القتلى، كي يوقفا الحرب بين قبيلتي عبس وذبيان التي دامت أربعين سنة، من ذلك هذه الأبيات المقتبسة من معلقته:

يَمِينًا نِعَمَ السَّيِّدَانِ وَجِدْتُمَا	عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ سَحِيلٍ وَمُبْرِمٍ
تَدَارَكْتُمَا عَبْسًا وَذُبْيَانَ بَعْدَمَا تَفَانُوا	وَدَقُّوا بَيْنَهُمَا عِطْرَ مَنْشِمٍ
وَقَدْ قُلْتُمَا إِنْ نُدْرِكِ السَّلْمَ وَإِسْعَا	بِمَالٍ وَمَعْرُوفٍ مِنَ الْأَمْرِ نَسَلَمَ
فَأَصْبَحْتُمَا مِنْهَا عَلَى خَيْرِ مَوْطِنٍ	بَعِيدَيْنِ فِيهَا مِنْ عُقُوقٍ وَمَأْتَمٍ
عَظِيمَيْنِ فِي غُلْيَا مَعْدًى وَغَيْرِهَا	وَمَنْ يَسْتَبِحَ كَنْزًا مِنَ الْمَجْدِ يَعْظَمُ

ولم يكن زهير بن أبي سلمى ليعظم صنيع الرجلان لولا إعجابه بهما، وبحسمهما للصراع الذي دام بين قبيلتين لمدة أربعين سنة.

وبالمقابل ظهر شعراء كانوا يسعون لمدح الممدوح رغبة في هداياه وعطاياه؛ فسمي هذا النوع من المدح بـ: "مدح التكبسب"، فقد عُرف بعض شعراء الجاهلية بمدحهم للملوك كي ينالوا هداياهم، فيرفعون من شأن الملوك، ويصفونهم بغير صفاتهم، ولعل ذلك كان سبب رغبة الملوك والخلفاء بذلك المدح الذي يرفع من شأنهم، فيغدقون بكرمهم على الشعراء تحفيذا لهم على الغلوف في ذلك المدح رغبة في إرضائهم، وخير من يمثل هذا النوع من المدح: الشاعر النابغة الذبياني.

وقد سائر شعراء صدر الإسلام شعراء الجاهلية في مدح هذه الفضائل، وأضافوا إليها صفات حميدة أخرى جاء بها الإسلام؛ مثل: التقوى، التواضع، الورع، والصبر، فمدح الشعراء الخلفاء والولاة، ومدحوا تماشي حكمهم مع تعاليم الدين الإسلامي، وتقوى الله والعدل.

كما ظهر في صدر الإسلام المديح النبوي الذي يهتم بمدح رسول الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم، من خلال تعداد صفاته الخلقية والخلقية، وإظهار الشوق لرؤيته وزيارته والأماكن المقدسة التي ترتبط بحياته، مع ذكر معجزاته المادية والمعنوية ونظم سيرته شعراً، والإشادة بغزواته وصفاته والصلاة عليه تقديراً وتعظيماً، يقول حسان بن ثابت مادحا النبي محمد صلى الله عليه وسلم:

وَأَحْسَنُ مِنْكَ لَمْ تَرَ قَطُّ عَيْنِي	وَأَجْمَلُ مِنْكَ لَمْ تَكِلْ نِسَاءً
خُلِقْتَ مُبْرَرًا مِنْ كُلِّ عَيْبٍ	كَأَنَّكَ قَدْ خُلِقْتَ كَمَا تَشَاءُ

أما في العصر العباسي فنجد مثلاً مدائح المتتبي التي مدح من خلالها سيف الدولة الحمداني، والذي كان يصفه بصفات العظمة والرفعة التي يتصف بها حقيقة وفق رؤية المتتبي له، بينما كان مدحه لـ كافور الاخشيدي مجرد طمع في ولاية كان قد وعده بها كافور الاخشيدي.

وتجدر الإشارة إلى أن المدح قد ازدهر في العصر العباسي من خلال تصويره لمختلف البطولات، من خل مدحه للخلفاء، وشجاعة القادة، وسياسة الوزراء، وعدل الفقهاء والقضاة.